التعريف والنقد

حول رحلة ابن طوير الجنـة

د٠ أبو القاسم سعد الله

قرأت في هذه المجلة[١] ماكتبه الدكتور صفاء خلوصي عن (كتاب حجة احمد بن طوير الجنة) الذي نشره الدكتور نوريس بالانكليزية ٠ وقد لاحظت ان الدكتور خلوصي قد عرض الكتاب مكتفيا بما جاء على غلافه ، كما لاحظت ان الدكتور نوريس قد اقتصر في تحقيقه على نسـخة واحدة ٠ لذلك رأيت من المفيد للباحثين ان اضيف هنا بعض ما اعرفه عن الموضوع ٠

١ ـ في البحث عن الرحلة :

علمت بوجود شخصية الطالب احمد المصطفى بن طوير الجنة اوائل الستينات عند قراءتي لكتاب (المرآة) لحمدان بن عثمان خوجة الجزائري الذي كتبه سنة ١٨٣٣[٢] ٠ فقد شكا حمدان في كتابه من اجبار السلطات

(١) الجزء ٣ ، المجلد ٥٣ ، ص ٦٦٥ ٠

(٢) كتبه اصلا بالعربية وترجمه السيد حسونة دغيز الطرابلسي الى الفرنسية ونشر في باريس ، ١٨٣٣ ٠ وقد ترجم الكتاب اخيرا الى العربية (لأن اصله العربي مفقود) في ترجمتين احداهما لمحمد العربي الزبيري والاخرى لمحمد بن عبد الكريم ٠

الفرنسية للجزائريين على توفير وسائل الراحة للشيخ ابن طوير الجنة وحاشيته عندما حلوا بالجزائر في طريق عودتهم من الحجاز الى شنقيط . وظللت ابحث عن آثار هذا المرابط الذي جعلته الاقدار رغم انفه يعيش بين الفرنسيين فترة حتى اصبح غير محسود من اخوانه الجزائريين نظراً لاهتمام الفرنسيين به . فقد كان هؤلاء يرجون من ورائه الحصول على معلومات هامة عن افريقية الغربية والمغرب الاقصى على الخصوص لانه قدم اليهم نفسه (او هكذا فهموه) على انه امير او ملك ودّان ونواحيها وليس مجرد مرابط درويش .

وحوالي سنة ١٩٦٩ وجدت في (المجلة الافريقية)[١] خلاصة عن رحلة ابن طوير الجنة قدمها بالعربية السيد ديستان الفرنسي مدير مدرسة الجزائر في وقته . وكان ديستان قد زار غرب افريقية وقضى في السنغال ثلاث سنوات (١٩٠٧ ــ ١٩١٠) وخالط الأهالي هناك واطلع عندهم على مخطوطات عربية هامة في شتى الفروع فنسخ بعضها وتصفح اخرى مليّاً واكتفى من بعضها بالتصفح السريع . ومن بين هذه المخطوطات رحلة ابن طوير الجنة المساة (رحلة المُنَى والمِنّة) . ولما كنت عندئذ أعدّ مادة كتابي (تاريخ الجزائر الثقافي) فقد سجلت المعلومات التي اوردها ديستان عن رأي ابن طوير الجنة في الاحتلال الفرنسي للجزائر في انتظار العثور على نسخة كاملة من الرحلة . وترجع اهمية هذه الرحلة بالنسبة لموضوعي ان صاحبها قد حل بالجزائر غداة الاحتلال الفرنسي ، سنة ١٨٣٢ ، وسجل انطباعه عن ذلك . ولعل ابن طوير الجنة هو اول عربي مسلم قد زارها في ذلك التاريخ المبكر للاحتلال .

(١) سنة ١٩١١ ، ص ٢١٦ ــ ٢٣١ .

ولكن المعلومات التي اوردها ديستان عن الرحلة لم تكن كافية رغم ان خلاصته عنها بلغت ست عشرة صفحة • وحوالي سنة ١٩٧٢ طلب مني الزميل الدكتور عبد القادر زبادية (الذي كان عندئذ في بريطانيا) تصوير ماكتبته جريدة المونيتور الجيرياني Le Moniteur Algérien الفرنسية عن زيارة ابن طوير الجنة للجزائر لتقديم المصورة الى الدكتور نوريس • واطلعت من ذلك ومن مراسلات الدوق دي روفيقو ، الحاكم الفرنسي للجزائر ، على موقف الفرنسيين من ابن طوير الجنة وما كانوا يتوقعونه منه •

وكنت اعتقد ان نسخةً من (رحلة المنى والمنة) لا بد ان تكون في احدى خزائن المغرب • فرجعت الى (دليل مؤرخ المغرب) لابن سودة فلم اجده قد ذكرها في باب الرحلات • ومع ذلك لم افشل • فحين زرت الرباط سنة ١٩٧٣ بحثت عنها فلم اجدها ايضا • فسألت البحاثة الاستاذ محمد المنوني فاستغربها ثم قال انه يعرف من يحمل هذا الاسم (ابن طوير الجنة) من مراكش ولكنه لا يعرف عن الرحلة شيئا • غير ان ذاكرة الاستاذ المنوني احتفظت بالخبر وظل يبحث عنها • وفي لقائنا اثناء المؤتمر الاول لتاريخ الجزيرة العربية الذي انعقد بالرياض سنة ١٩٧٧ بادرني الاستاذ المنوني ، بعد السلام ، بانهم حصلوا (وهو يعني الخزانة العامة بالرباط) على نسخة مصورة من رحلة ابن طوير الجنة فشكرته على الخبر ورجوته ان يصور لي منها نسخة ، ولكن علاقات بلدينا لم تسمح لكلينا بانجاز الوعد •

ومن جهة اخرى قرأت رسالتين كتبهما دي لابورت ، قنصل فرنسا في طنجة عن ابن طوير الجنة ، وذلك سنة ١٨٣٣[١] • وكان ديلابورت قد

(١) Bull. de la Société de Géographie, Paris, 1833, p. 343-348

التقى عدة مرات به بعد عودته الى المغرب على الباخرة الفرنسية (لافليش) التي حملته (ابن طوير الجنة) من الجزائر الى طنجة عبر جبل طارق . وقد حاول ديلابورت التأثير عليه والاستفادة منه والتعرف على مكانته في قومه وعلاقته بسلطان المغرب .

كما قرأت في نفس المكان ماكتبه البارون روجيه الفرنسي الذي حذر قومه من الاغترار بالمعلومات التي يعطيها لهم ابن طوير الجنة وأمثاله لأن المرابطين يبالغون في اظهار نفوذهم وقوتهم طمعا في هدايا الاوروبيين واشادة بقوتهم وخيرات بلادهم .

وفي لقاء في جامعة ميشيغان بيني وبين الدكتور محمد دغيم الليبي وبلديّه الاستاذ احمد الفيتوري (ابريل سنة ١٩٧٨) جرنا الحديث الى رحلة ابن طوير الجنة . وقد طلبت منهما مساعدتي على الحصـــول على نسخة منها . فقال لي الدكتور دغيم إنه كان منذ سنوات عند الدكتـــور نوريس في بريطانية فأطلعه على نسخة من هذه الرحلة وطلب منه ان ينشرها اذا رغب . ولكن الدكتور دغيم (وهو متخصص في ادب الاندلس) لـــم يهمه نشر عمل ابن طوير الجنة . وقد وعدني بالاتصال بالدكتور نوريس والحصول منه لي على صورة من نسخته . غير انه لم يمض على هذا اللقاء شهر حتى وصلتني رسالة (وكنت عندئذ في جامعة منيـــوتا) من الاستاذ احمد الفيتوري يخبرني فيها بأنه علم بأن رحلة ابن طوير الجنة قد نشرهـــا بالانكليزية الدكتور نوريس . وبقدر ما سررت بخروج الرحلة الى الضوء بقدر ما حزنت على عدم ظهورها بالعربية . ومع ذلك سعيت في الحصول على نسخة من طبعة الدكتور نوريس حتى نجحت .

٢ ـ تحقيق الدكتور نوريس :

والواقع ان الدكتور نوريس لم يحقق رحلة ابن طوير الجنة التحقيق العلمي المتعارف عليه وانما ترجم النص وقدم له وعلق عليه معتمداً في ذلك على نسخة واحدة . وقد سجل انه حذف بعض الفقرات كما اختصر بعضها . ورغم اهمية المدخل الذي كتبه فان معظمه يبدو بعيد الصلة بموضوع الرحلة . كما ان تعقيباته بعد كل فصل قد جعل موضوع الرحلة مفككا . ولو أنه صب افكاره الرئيسية في المدخل لحافظ على وحدة وتسلسل النص . والغريب ان الدكتور نوريس لم يصف شكل الرحلة فلا نعرف عدد صفحاتها[١] ولا ما اذا كانت مبوبة في الاصل بالطريقة التي اتبعها هو ، مكتفيا بقوله انها نسخة جيدة Fine copy . كما انه من الغريب ان لا يضع لطبعته ثبتا عاما في آخرها يضم الاعلام وغيرها .

ورغم ان الرحلة تعتبر في المصطلح رحلة حجازية فان الدكتور نوريس قد وضع عنوانها هكذا : The Pilgrimage of Ahmed

والملاحظ ان الدكتور خلوصي قد ترجم نفس التعبير الى العربية هكذا (كتاب حجة احمد بن طوير الجنة) بدل (رحلة ...) . وقد اعتاد المغاربة ان يطلقوا على سفرهم للحج من بلادهم الى الحرمين اسم رحلة . فهناك رحلة الورتلاني (نزهة الانظار) ورحلة العياشي (ماء الموائد) وغيرهما . والرحلة تعني عادة تسجيل الحاج للمشاعر والحوادث والمشاهدات التي تقع له منذ خروجه من بلدته الى عودته اليها . اما كلمة « حجة » فهي لا تعني تسجيل المشاعر والحوادث والمشاهدات ، وقد ذكر ابن طوير الجنة ان عنوان رحلته هو (رحلة المُنَى والمِنَّة) وهو عنوان

(١) حسب نسخة ديستان تبلغ ورقات الرحلة ٧٦ ورقة ٢٢ × ١٦٫٥ .

جميل ومفيد ويتماشى مع تقاليد الرحلات المغربية[١] . وهو العنوان الذي حافظ عليه السيد ديستان في مقاله المذكور ، ولكن الدكتور نوريس اهمل هذا العنوان تماما ولم يذكره الا في ثنايا النص داخل الكتاب .

وقد يكون اهمال هذه المسائل غير هام اذا قيس باهمال الدكتور نوريس الرجوع الى نسخة اخرى على الاقل من الرحلة ، خصوصا وان نسخها قد تعددت . حقــا ان نسخته قد كتبت اثناء حيــاة المؤلف سنة ١٢٥٣ هـ ، بينما توفي ابن طوير الجنة سنة ١٢٥٦ ، وانه وصفها بالجودة كما سبق . ولكن هذا لا يعفيه من مقارنتها بغيرها . وقد اشار نوريس نفسه الى النسخة التي لخصها ديستان ، فاذا ناسخ هذه هو لحبيب بن الحنبل بن المختار بن عمر اما ناسخ نسخة الدكتور نوريس فهو الحــاج عمر بن سيدنا بن الحاج عمر . كما ان تاريخ كتابتهما يختلف .

ولو اقتصر الأمر على هذه النواحي لهان ، ولكن اختلاف النسخ قد اظهر ان هناك اختلافا في المحتوى ايضا . ورغم انني لا املك الآن نســخة كاملة من هذه الرحلة فان مقارنة بعض ما اورده ديستان منها بما جاء في نسخة نوريس يؤكد ذلك . وسأكتفي هنا بمثالين يتعلقان بالجزائر التي من اجلها اهتممت بهذه الرحلة .

المثال الأول : ان نسخة ديستان تثبت ان ابن طوير الجنة كان عازما على السفر الى الحج عن طريق البر عبر الجزائر ، ولكنه عندما وصل الى فاس سمع باحتلال الفرنسيين للجزائر فعدل عن خطته وكتب بذلك الى

---

(١) انظر بحثي عن « الرحلات الجزائرية الحجازية » في كتابي (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) ، الجزائر ، ١٩٧٨ . وهو البحث الذي ساهمت به في المؤتمر الاول لتاريخ الجـزيرة العربية ، الرياض ، ١٩٧٧ .

السلطان عبد الرحمن الذي وجه الركب الى مدينة العرائش لركوب البحر . وهذا نص عبارة ابن طوير الجنة « فلما قدمنا فاسا وجدنا الجزائر اخذتها النصارى افرانسيس ، كتبنا الى مولاي عبد الرحمن ، وهو بسكناسة الزيتون ، ان البر لا يسكن السير فيه لأنه صار ارضا سائبة وانا نحب الركوب في البحر ، فبقينا في حيرة .... فكتب هو ، نصره الله ، الى قائده بالعرائش مكتوبا الخ . »(١)

ان هذه الفقرة الهامة محذوفة من نسخة نوريس رغم انها تتعلق بحادث غيّر مجرى الحياة في المغرب العربي عندئذ وجعل صاحب الرحلة نفسه يضطر لركوب البحر ذهابا كما اضطر اليه عودة . ذلك ان نسخة نوريس تجعل ابن طوير الجنة يتوجه من فاس الى العرائش بدون مبرر وكأنه كان قد خطط لذلك منذ خروجه من ودّان . ولو اتبعنا نسخة نوريس فقط لوجدنا ان صاحب الرحلة لا يذكر احتلال الفرنسيين للجزائر الا عندما وصل الى الاسكندرية .

اما المثال الثاني فهو ان عبد الرحمن المجذوب (ويكتبه نوريس سيدي الرحمن فقط !)(٢) دفين مكناس قد تنبأ بأن الجزائر ستحتل لا محالة : إما من سلطان المغرب وإما من النصارى ، وأن الذي سيحتلها أولا هو الذي سيحتفظ بها الى الأبد . وبناء على نسخة ديستان يسوق ابن طوير الجنة هذا الخبر قبل وصوله الى الاسكندرية ، اما نسخة نوريس فتسوقه بعد وصوله اليها . ومن جهة اخرى اورد ابن طوير الجنة خبر اجتماع ديوان الأولياء واتفاقهم على اخذ الجزائر من ايدي المسلمين

(١) المجلة الافريقية ، ١٩١١ ، ص ٢١٩
(٢) صفحة ٣٦

لطغيانهم الخ • ففي نسخة ديستان يأتي الخبر بعد وصول ابن طوير الجنة الى مدينة الجزائر عائداً من الحج ، اما نسخة نوريس فتورده عندما كان صاحب الرحلة في بجاية ، وهناك امثلة اخرى على اختلاف النسختين • ولو كان لدينا نسخة اخرى كاملة من الرحلة لوجد المقارنون اختلافات اخرى قد تكون أهم موضوعا وفكرة •

٣ ـ التعليق على الرحلة :

قام نوريس بترجمة تكاد تكون حرفية للنسخة التي يملكها مـــن الرحلة • وما دامت هذه الترجمة موجهة الى القارىء الغربي والمستشرق فاني اعتقد انه سيجدها ثقيلة • ذلك ان الرحلة مليئة بالخرافات وحكايات الدراويش التي قد لا تستسيغها عقلية الغربيين • وهي تذكر المرء ببعض ما جاء في رحلة الورتلاني في نفس الموضوع • ولعل الذي حدا بالدكتور نوريس الى ترجمتها ، رغم ذلك ، عاملان :

١ ـ تقديم نص في نطاق اختصاصه ، وهو افريقية الغربية ، الفه احد المرابطين البارزين في وقته ، وهو الطالب احمد المصطفى بن طوير الجنـــة الذي امتد نفوذه الروحي اوائل القرن الثالث عشر (١٩ م) من المغـــرب شمالا الى السنغال جنوبا ، وكانت له علائق مع سلاطين المغرب ورؤساء العشائر في شنقيط •

٢ ـ اظهار حكم ابن طوير الجنة على الفرنسيين والانكليز الـــذين كانوا يتنافسون على تقسيم العالم • وتظهر الرحلة ، حسب نسخة الدكتور نوريس ، ميول ابن طوير الجنة نحو الانكليز ضـــد الفرنسيين • فقـــد استقبله ممثل فرنسا في الجزائر (وهو الدوق دي ريفيقو) وعامله معاملة

« الضيف الاسير » وحاول ، عن طريق التراجمة ، التعرف على ما في بلاده من تجارة وعلائق سياسية . اما ممثل الانكليز في جبل طارق (وهو القنصل ويليام هوستون) فقد احتفى به وعامله معاملة الملوك والأمراء واقام له التشريفات والحفلات ، ولا شك ان النصين الفرنسي والانكليزي اللذين اوردهما الدكتور نوريس يعطيان صورة واضحة عن نظرة وحكم ممثلي فرنسا وانكلترا على ابن طوير الجنة عندئذ (اول سنة ١٨٣٣) .

ونحن نتمنى ان يتقدم احد الباحثين العرب والمسلمين لتحقيق (رحلة المنى والمنة) باللغة العربية رغم ما فيها من استطرادات وخرافات مملة . فهي قبل كل شيء جزء من التراث العربي الاسلامي لأهل شنقيط (موريطانيا) . ونعتقد ان كل عربي مسلم يتصدى لهذه الرحلة سيستفيد من تجربة الدكتور نوريس معها ، ولكنها لن تكون التجربة الوحيدة التي سيستفيد منها .

مدينة آن آدبر ــ جامعة ميشيغان

أبو القاسم سعد الله القماري
قسم التاريخ ــ جامعة الجزائر